بلوطارخوس اليوناني

وكتابه التراجم والسير

هذا كاتب كان حقيقاً أن يذهب صيته بيننا كل مذهب ؛ وأن يبلغ اسمه من الشيوع مبلغ الذين طارت شهرتهم من كتّاب العرب بالاعجاب ، وكتّاب الغرب الأقدمين فيتمرّون على ألسن الأدباء منا والمتأدبين مذكوراً ، وفي مجالس العلماء ومذاكرات المتعلمين معروفاً معدوداً

وان كتابه (التراجم والسير) كان جديراً أن لا يكون معاشر المترجمين والناقلين للاسفار الأولين والمحدثين من نوابغ وعباقرة الغرب بطلة في نقل هذا الكتاب الجليل ، وانه كان ينبغي أن يتبوأ مكانه في صفوف خزائن الكتب العامة والخاصة في ديارنا ، وانه كان أزم ما يلزم ذكره من بين ما نذكر من أسامي الكتب ، عيونها وبدائعها التي ينشرها الناشرون ويطبعها الطابعون .

ولعمري انه لذرة عالية السناء لآلاءة العلياء في عقد جلائل المصنفات ، هو حريٌّ بأن يقتنى وان يحصى في الذخائر والنفائس . فما أحوجنا الى امثال هذه الكتب التي تنور فيها ذكر العظماء ، وسير النبغاء ، فيجد فيها رجالنا ، ولا سيما فتياننا ، الأسى الطيبة ، والمثل العالية ، فيحتذون حذوهم ، ويقتدون بحسن بلائهم ، وعجيب صنيعهم ، ومجيد مآثرهم ، وشدة اخلاقهم ، وعلو نفوسهم .

وذلك بلوطارخوس المؤرخ الكبير والكاتب الأخلاقي الذي يعد بألف من الكاتبين ، في مقاطعة بيؤتيا Béotie في بلاد اليونان في ما بين عامي ٤٥ و ٥٠ م . في عهد الامبراطور كلود الروماني . ومن جوائح الدهر بالكتب أن بلوطارخوس كتب سيرته بقلمه في كتاب فقد في المفقودات .

تلقى دروسه علومه في مسقط رأسه كيرونيه احدى مدن بيؤتيا ، ثم شخص الى أثينا فدرس الطبيعيات والرياضيات ، وعلوم اللغة والبلاغة على أميليانوس ، والفلسفة عن امونياس

حتى اذا انتهى من هذه العلوم غلته ، رحل الى مصر ، فأقام فيها زمناً غير مديد ، وغادرها الى روما حاضرة الأمبراطورية الرومانية . وهنالك عرف الرومانيون قدره ، وجلّت فيهم منزلته ، وتفهموا علمه وأدبه ، فلمع في الآفاق نجمه وعلا ذكره ، حتى ارتفع به شأنه الى أن اتخذه الأمبراطور ادريانوس استاذاً له ومؤدباً .

وقد مكث في روما زهاء عشرين عاماً ، كان فيها أوفى العاملين لمصالح بلاده ، وأحسنهم سفارة عنها لدى حكومة الأمبراطورية الرومانية ، ولدى وجوهها وعظمائها ، وهو مع هذا ليس بالسفير المعين ، ولا المندوب الرسمي . ولم يصرفه هذا عن القاء المحاضرات ، وتدريس العلوم ، وارتياد المكتبات المختلفة يذوق ما اعذوذب وطاب من نفائس الأسفار ونفائر المدونات ، فتزوّد ماشاء أن يتزوّد منها في تصنيف مؤلفاته الكثيرة . وقد اتخذ له اصدقاء كثيرين من فلاسفة الرومان في ذلك العهد . وتوثقت بينه وبينهم عرى المودة وأسباب الألفة والتزاور .

ولما تقفل الى موطنه عرف له قومه ماقدم من العمل الصالح ، والخدمة الخالصة لبلاده ، فأجلوا استقباله ، وأحلوه أرفع منزلة فيهم ، فجعلوه حاكماً على ولايتهم .

وكان بلوطارخوس غزير المادة ، جم المعرفة ، وافر الكتابة . فهو أكثر كتاب عهده تصنيفاً وتحبيراً . بلغت مؤلفاته الثلاثين كتاباً بعد المائة ، في شتى المناحي ، وشُعَب المعارف ، في التاريخ والفلسفة ، والنقد ، واللغة ، والبلاغة ، والأخلاق ، فقد أكثر فأمست خبراً من الأخبار

وقد كان لبلوطارخوس في كتاب فرنسا في القرن الخامس عشر ، ولا سيما كتاب القرنين الثامن والتاسع عشر ، نفوذ كبير ، وأثر بليغ ، فالفيلسوف مونتسكيو كان كثير الرجوع اليه ، والفيلسوف روسو شديد الولوع به ، جم الانتجاع في الاطلاع على صنوف ماخلف من مصنفات . أما كتاب القرن العشرين ونقاده فما قصرت بهم جهودهم عن درسه ، ولا تخلفوا عمن سبقوهم في الاعجاب به والتواضي بالعناية بما حبر وصنف ، ولكنهم لم يفرطوا ولم يغالوا ، بل كانوا عند حد القصد والاعتدال في وزنه وتقديره ، فأحلوه في الطبقة الثانية بين كتاب زمانه .

وكان بلوطارخوس شغوفاً لتأريخ روما ، مكبراً لأمرها ، معجباً بمفاخرها وتأريخ مجدها ، ولكنه مع هذا كان متشبثاً بحب وطنه وإجلاله . من قلب الموضح الأسمى دوس اجلاله المحل الأسمى . يجز في نفسه أن تشمل بعد بؤس العز والمجد أبواب الذل والهوان ، ويملأ ما بين ضلوعه أسى ولوعة أن يجدها في أصفاد الرق قد أقل أعناقها نير الاستعباد للعنصر الأجنبي الروماني . ويعد بلوطارخوس آخر فلاسفة اليونان ، والفرع الأخير من شجرة حكمائها ، وأحبهم لديهم ، وأدناهم الى قلوبهم .

* * *

وأشهر كتبه ، وذؤابة مصنفاته كتابه في (التراجم والسير) أو حياة مشهوري اليونان والرومان Vie des hommes illustres de la Grèce et de Rome وهو خليق أن يسمى (التراجم المقارنة) اذ هو كتاب ضخم قد ضم بين جلدتيه تراجم وسير نحو الخمسين عظيماً من أولئك الذين كانوا في التاريخ شموساً وكواكب ، من كل عصامي أو عظامي طار بأجنحة النسور شهرة ومجداً ، بين فاتح وقائد وخطيب ومشرع وسياسي وعالم عامداً فيه الى المقارنة بين عظيمين عظيمين من اليونان والرومان ، فسرد سيرتهما ، وأتى على ذكر أعمالها وآثارهما ، وذكر فيما يتشابهان ، وفي ما يختلفان ، ثم يستخلص من ذلك رأياً ويخرج بحكم فيه فصل الخطاب في ذينك الرجلين . مثال ذلك مقارنته بين سيرتي تيزن أقدم ملوك اليونان ، وروموليوس أقدم ملوك الرومان ، ومقارنته بين حياة لوكورج المشرع الاسبرطي ، ونوما بومبليوس ثاني ملوك روما ؛ وبين دموستين أشهر خطباء اليونان ، وشيشرون أشهر خطباء الرومان ؛ وبين اسكندر القائد والفاتح اليوناني ، وقيصر القائد والفاتح الروماني . ولا يزال آخذاً بيدك يوالي عليك عرض هذه الصور لأولئك العظماء مفصلاً ، مدققاً محللاً حتى تخرج من تلاوة هذا السفر العظيم بعلم كثير من آثار العبقرية ومجال النبوغ في حياة الرجال ، وعوامل العظمة في مراحل التاريخ واطواره ، وشأن الأخلاق في تصرفات الأمم وأحوالها . وتأهيلها بذلك لعبرة وفائدة ترجح في الوزن على نفيس الجوهر

أحمد أبو الخضر حنفي